فى الواجبات الكبرى

بقلم صاحب العزة الدكتور منصور فهمى بك
مدير دار الكتب والعضو بمجمع فؤاد الأول للغة العربية

حين أردت أن أتحدث عن الواجبات الكبرى قصدت بذلك إلى التحدث عن بعض ما يوجبه على نفسه فى هذه الظروف وجدان الشخص الراقى حيال الانسانية ، حين يشعر أنه مدين لها بنعم كثيرة ، وحيال أمته حين يشعر أنه مدين بشخصيته المميزة لقومه وذويه بما أعدوه له من كيان ، وفكر ، وثقافة ، وخلق .

وتبدو هذه الواجبات الكبرى المنترعة من الضمير المصقول أحيانا فيما يقوم به الأفراد لمصلحة العالم عامة . وأحيانا أخرى فيما يقومون به لخدمة الجماعة التى نشأتهم ودرجتهم فى كنفها وأحضانها ، فهذه الواجبات لا تعدو إذن أن تكون إنسانية شاملة ، أو قومية محصورة الحدود . وهى طالما تساير الواجبات الجارية المألوفة حيال أنفسنا وعائلاتنا وأعمالنا الخاصة. ولا تعارض بين الواجبات الكبرى وغيرها إلا فى أحوال محدودة يستعان فيها بالتوفيق بينها جميعا ، أو بتوفيق الله لتغليب بعضها على البعض الآخر .

وليس يخاف على أحد ممن تصل إليهم كلمتى أن الأرض قد أصبحت فى شتى أنحائها المتحضرة مسرحا ممهدا لخطوات الشيطان وميدانا فسيحا للضلال القاسى والحروب الدامية التى نشرت الاضطراب ، وبسطت أجنحة الخراب ، وبدلت أمن الناس خوفا ، وفرحهم ترحا ، وشبعهم جوعا ، وقرة عيونهم دموعا ، واستقرارهم فزعا وجزعا وهلعا .

ولا يجوز لمن جنبته الأقدار قساوة هذه الحالة فى هذه الفترة من الزمن أن يظل بمنزله عما يعانيه الذين اصطلوا بنارها ، فيقف منهم موقف المتفرج المنصرف عن التفكير فيما عسى أن يكون من نتائج الحرب وآثامها فى حين لا تقصر هذه النتائج على المحاربين بل قد تتعداهم إلى من ليسوا فى ميادينها ، ولم يكونوا من جناتها .

وإن مثل الذى يقف هذا الموقف السلبى من هذه الحرب الشعواء ، كمثل قصير النظر حين يقف فى مفترق الطرق الصاخبة المزدحمة فلا يلفته فى أفقه الضيق حول قدميه إلا ما يخلو من الأهمية ، دون أن يمتد بصره إلى ما قد يكون ذا خطر على كيانه وسلامته من حركة داهمة .

وهل يقف هـذا الموقف الا من يجهل مقـام التآزر الاجتماعى ، ويغفل عن أسبابه ونتائجه ، بعـد أن قربت الحضارة بين الأرجاء ، ودانت بين النظم الاجتماعية وبين مختلف الآراء والمشارب .

وانى عند ما أستقرئ فى هذه الأحوال شؤون الناهبين من مواطنى ، وأستعرض بعض مواقفهم ومسالكهم من هذه الحرب ، أشعر فى غبطة أن فى الوطن نفوسا حساسة لمصائب الغير تمدها نزعات المروءة ، وتهزها نفحات الاحسان ، وقلوبا غير خالية من الايمان بالواجبات الانسانية والقومية الكبرى .

وأظهـر الأمارات لقيام أمته بالواجبات الانسانية العـامة ، ما عرفناه من الموسرين والناهبين فيما حين استجابوا للدعوات الخيرة ، لما نادتهم الجمعيات العامـلة لتخفيف أرزاء الحروب . وما عرفناه عن طائفة من مفكرينا الذين يشغلون عقولهم بما يبدو لهم أن فيه دفعا للخصام ، وإعدادا للتفاهم ، وتقريبا لمطالب الحق والسلام . ومن ذلك النزوع الانسانى الخير الدال على رقى الأمـة قد لا تفعنا خطواته الوئيدة ، ولا بواكيره اليسيرة ، بل إننا نرجو أن نسير فى ذلك خببا ، فان الانسانية تضعنا فى المكان الأكرم اللائق كلما ضاعفنا الهمة . وواصلنا الجهود ومعونتها ومشاطرتها الآلام ساعة اشتداد الخطوب ، وكلما حاولنا الاشتراك فى مسائلها الكبرى . وحرصنا على أن يكون لنـا رأى فى حلولها ، وعملنا على أن يكون لنا صوت مسموع فى المشكلات والنظام التى تحدث فى الأرض بين الناس ، فإن ما يحدث منها سيؤثر فينا لا محالة .

وما دمنا نريد لأنفسنا ان نكون أمة حية مستقلة تحيا مع الأحياء ، فيجب علينا أن نقف من أنفسنا ومن الأمم موقف المتأثر والمؤثر ، والقابل والفاعل ، ولا نقنع بأن نكون من المتفرجين على غيرنا ، أو نكون ممن يسيرهم هـذا الغير دون أن يكون لنـا عمل مذكور فى مسيره أو مسير الغير والحوادث . وليكن من المعلوم أن مساهمة المتبرعين فى تخفيف وطأة الحرب وشرورها وأن عمل المفكرين فى بواعثها وأسبابها ونتائجها لا يكفيان لنشر الطمأنينة وإخماد اللهيب المشتعل وتسويد السلام . إنما يخيل الى أنه الى جانب ذلك قد يفتقر الى اتجاه نفسانى شديد حول المتقاتلين ، يتيسر لنـا ولجميع الناس أن يشتركوا فيه ، ويتعاونوا عليه ، على الرغم من تباينهم فى الطبقات ، وتفاوتهم فى العلم والتجربة ، واختلافهم فى الجنس والدين والسن واللغـة . ويتمثل لى ذلك الاتجاه فى أن تفعم النفوس كرها للحرب ، وتملأ الأفواه ذمهـا ، وتضيق رحب الصدور بالحقد عليها وإصدار المقت والازدراء بها وبكل باعث لها أو دافع اليها . فإذا عمت وانتشرت هذه الحركة الروحية ، وشمل الناس هذا التسامح المعنوى فى سبيل السلم وشاعت فى أجواء الدنيا هذه النزعات الصافية النبيلة فانها لا تلبث أن يكون لها ضغط فعال تتفجر منه تيارات تحد من المضاء فى النضال ، ولا تلبث أن يكون

ما أثرٍ في تحقيق ما يرتجى لخير العالم وهدوئه . ولقد اشتد النزوع الى أمنية السلام في هذه الأيام الأخيرة . ولعل ما جاءت به الأنباء منذ قليل من ذكر حركة لرجال الدين في أوروبا ترمى الى مقاومة الحرب وتحقيق السلام المنشود ليست الا مظهرا للاتجاهات المعنوية الكامنة التي ينبغي أن يساهم فيها كل إنسان حين تتوجه نفسه لخدمة البشر . ويلوح لي أن في هذه الدعوة إلى أصول الأديان والإشادة بمبادئها ، علاجا شافيا لكثير من الأدواء الانسانية ومضاعفاتها الأثيمة التي في طليعتها الحروب . وما دمنا نشير الى أصول الأديان ونشيد بما لها من مبادئ حكيمة رحيمة فقد وجب علينا أن نطالع الناس بما للإسلام من نظم وكلمات عليا ممتازة في هذا الموقف التاريخي الخطير .

وعلى هذا يكون أظهر ما يبدو من الواجبات الانسانية الكبرى ، حرصنا على أن نؤيد الجمعيات العاملة لتخفيف أوزار الحرب ، وأن نفكر في دواعيها المزمنة ومساوئها تمهيدا لاستقرار السلام ، وأن نؤازر النزعات الدينية المحققة لخير الانسانية . وليس من شك أن الانسانية في مثل هذه المحن التي تصيبها اليوم ، وفي مثل هذه العواصف التي تعصف بها هي أحوج ما تكون الى أن يشغل الناس أنفسهم بالواجبات التي تؤدي الى كبت الأنانية ، والترويج للغيرية والإيثار .

أما أهم واجباتنا القومية الكبرى فقبل أن أشير إليها يجب أن أحمد لقومي ما قاموا به في أشتات المواقف الاجتماعية من خدمات عامة وطنية ، فقد توالت مجاوراتهم ، وتتابعت أريحياتهم في دواعي الخير ومناحي البر ، إذ أقاموا الملاجئ للعجزة وأبناء السبيل ، وأنشأوا دور الكفالات للطفولة البائسة ، وعددوا المصحات والمشافي ، وبثوا مطاعم الفقراء ، وتسامت هممهم الى تخليص البتئسين عمالا وفلاحين من أذى الحفاء ، وأنقذوا ناشئة الفقراء من حرمان الكساء ، تلهم الخيرين بذلك روح مليك بار يوقظ في شعبه شمائل العطف والتعاون على الاصلاح .

بيد أني حين أحمد لقومي هذا كله ، لا يفوتني أن أنبه إلى ناحية أحسب أنها كفيلة بتحقيق خير كثير . فإن العالم يموج بالحوادث الجسام ويسترسل في الحرب نضالا حول المبادئ الاجتماعية والغايات الاقتصادية التي كانت من أهم العناصر في تأجيج نيران هذه الوقائع الدامية . فهل ينسى قادة الرأي منا أو يتناسون أن للشرق الاسلامي تاريخا مجيدا ونظما متساندة هي أصلح ما تكون لتوفير السلامة ، وتعزيز التقدم السليم . وربما كان في ذلك التاريخ وتلك النظم من حسن لتوجيه ما تفيد منه الانسانية جمعاء أيما فائدة في سبيل الخير وبسط السلام. وقد يكون من واجب قادة الرأي وزعماء الفكر مهما اختلفت أنظارهم في جزئيات المسائل وتفصيلاتها أن يكونوا هيئة رشيدة تعمل لاستغلال الذخائر الموروثة من النظم التشريعية والعادات الاجتماعية التي استنبطت من الاسلام وأظلت بفيئها القبائل

لكل من عاش فى كنف الأمم الاسلامية محاطا بما للمسلمين من شرائع ونظم وتقاليد . ولعلهم حين يقيمون هذه الهيئة يستطيعون بها أن يقيموا قلعة حصينة تحمى حوزتهم من تسلل أى نظام اجتماعى سيء قد تتمخض عنه الاحداث الجبارة الباطشة . ومن حق بلادنا أن تعيش وفق موروث تاريخها المزكى ونزعاتها الاجتماعية المتناسقة مع طبيعتها ، ما دام ذلك لا يتنافى مع المبادئ الانسانية السليمة التى تفرض على الناس جميعا . ولعل فى إقامة هذه الهيئة ما من شأنه أن يشد أزر المحافظة الشريفة التى قلت فى إحدى محاضراتى بصددها . "إنى أربأ بالمحافظة الرشيدة أن يساء فهمها فأكره أن تسوغ لأحد أن يتخذ شرا من شرور الماضى ليفرضه على الحاضر أو يقتلع شجرة خبيثة مما أنبتت العهود الخالية ليستصلح لها تربة لينبتها فيها . إنما لا أكره فى المحافظة الا تفرط فيما قل من خيرات الماضى لحشره فى زمرة خيرات الحاضر . ولا أكره من المحافظة أن تأتى بالزهرة الذابلة من الماضى فتضمها بين زهرات الحاضر فتزهو معها وتعيش" .

وعلى ذلك تقاضينا واجباتنا القومية الكبرى أن نعمل على الاحتفاظ بمشخصات اسلاميتنا وعربيتنا وشرقيتنا ، ليكون لنا من ذلك مدد وقوة نتذرع بهما فى وجه كل نظام يريد أن يضيع علينا معنوياتنا القومية . ويحرنا إلى الاندماج فى معنويات الغير حين أراد الله أن يميز الأمم بمعنويات منتزعة من نفسها وشعورها لا بما ينتزع من نفس الغير وشعوره .

والخلاصة : إذا غمرت قلوبنا بالنزعات الإنسانية ، وإذا عدنا نغترف من معين قوميتنا وماضينا وقامت فينا هذه الهيئة التى تمنيتها عاملة مخلصة متوجهة إلى الله لخير الوطن والمواطنين كانت جديرة أن تقابل بالبشر والارتياح من كل من يعنيه شأن البلاد وأهنيها مهما تباينوا أحزابا وشيعا وطرائق . بل إنها لتقابل بالارتياح والبشر كذلك ممن يهمهم أن تحتفظ البلاد الإسلامية بطابعها الجميل الجذاب ، وأن ترقى إلى مكانتها الرفيعة فى درجات الحضارة ، وأن يشتد نصيبها فى العمل لتوطيد الخير الشامل ، ودعم الحياة السعيدة .

منصور فهمى